الطاهر بن جلون في «رحيل»:

هوان العربي وتوثيق الروائي

أحمد المديني*

■ حين حضر الروائي المغربي الأصل الطاهر بن جلون إلى معرض الكتاب الثاني عشر الأخير بالدار البيضاء لتقديم روايته الجديدة «PARTIR» (غاليمار 2006) بدا حريصا بالدرجة الأولى على تأكيد انتمائه كهوية ثقافية وأدبية إلى بلده الأم، وكأنه في وضع من يدفع وصمة أو يرد تهمة. لم يكن هناك صك اتهام مباشر لحظة مقابلة الجمهور لكن السؤال بدا ملحاحا اليوم أكثر من أمس في ضمير صاحبه يقلبه تارة إلى رد ضمني وأخرى صريح يقول منطوقه المعنوي: أنا مغربي، همومي وانشغالي وتيمات كتابتي مثل كل الذين بقوا في هذه التربة، أي لم يهاجروا، والكتابة بالفرنسية في حالتي لا تنزع الهوية الأصلية أو تطرد صاحبها من عالمه. وإذ تكف شهرزاد عن الكلام المباح فإنها تنتقل إلى ما يعتق روحها ـ روحه ـ أي الحكي، السرد الفني بالنسبة لبن جلون الذي جاء إلى مضارب أهله ورواياته بيمينه تشهد، يريدها عربون أمان وتجديد انتساب لدم «العشيرة»، ولو كره الكارهون.

أردت هذه الفذلكة مدخل صدق لتقديم وقراءة العمل الروائي لواحد من أهم الكتاب العرب والفرانكفونيين ذائعي الصيت، الماهرين في فنهم بتقديرالجوائز والاعتراف على كل لسان، وفي الوقت نفسه الوقوع في دائرة الاختلاف يصل حد السجال حول التنازع بين هويتين لغويتين بتبعاتهما. لم أعرف الطاهر بن جلون معنيا، ولا أقول مريضا، بهذه الإشكالية في مطلع قوله وبزوغ شهرته؛ لقد بدا منسجما في إطار ما نسميه «الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية» وهو يصور فعلا معالم حياة وخبايا وجود تنتمي إلينا وترسم مخيالنا بقوة ودفء معا(روايتا «ليلة القدر» و«حرودة» على الخصوص)، لكن وهو ينتقل تدريجيا إلى الأفق الفرنسي ليصبح في قلب إنتاجه الروائي ـ بعد جائزة الغونكور طبعا 1987ـ ومنه إلى الآداب الأجنبية عموما سيغدو بقوة الأشياء آخر، ولن يصغي لمن يختصمون حوله من بني جلدته،

وعموما حول الإيديولوجية الفرانكفونية التي سيصبح عضوا في مجلسها الأعلى انطلاقا من إعارة لسانه للغتها وهي تقدم للقارئ الفرنسي بذلاقة وطلاوة الرؤية الحلمية للمجتمع الكولونيالي لأمس، وهذا من غير أن يحس المعني بالأمر بأي تناقض ولا تباعد عن محيطه الأصلي الذي بات ينظر إليه من بوصلة الضفة الشمالية للمتوسط مع إملاءاتها الضرورية، ومكاسبها الكبيرة شهرة ورقم مبيع ورسوخ قدم في حقل الكتابة الروائية بلا جدال.

تناغم تام من غير شك، إلى حين، أعني قبل أن تنطلق تلك الزوبعة «في فنجان» الحق في الانتماء أو عدمه إلى جراح الجسد المغربي، المتصلة بما سمته الأدبيات الحقوقية المغربية بـ«سنوات الرصاص» كناية عن زمن القمع والتعذيب الأفلة. فحين أصدر الطاهر بن جلون رواية «ذلك الغياب المعمى للضوء» (2001) التي تسجل عذاب سجين سياسي من السنوات تلك، معتقل روى للكاتب وقائع ومعاناة حقيقيتين، استهجن البعض ـ هم كُثر في الحقيقة، خليط من الضحايا والنقاد والحاقدين، فضلا عن البطل الواقعي من اعتبر أنه سلّب قصته حين لم يراسمه على الغلاف بجوار الكاتب الشهير ـ أن يهب الذي تطامن إلى عيشه الأوروبي ورفاهته من كل النواحي لرصد عالم من وُئدت أعمارهم واحترقت أجسادهم ومُهجهم في سجون الملك الحسن الثاني ومنافيه، بعد أن سكت دهرا وإذ نطق فكفرا، وكأنما يعيّرونه بقول الشاعر العربي: «دع المكارم لاترحل لبغيتها/واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي». سفّهت حينها في مقالة لي هذا الموقف اللاأدبي، باعتباره أولاً وصاية مرفوضة على الكتاب من واقع قبلي كيفما كانت ضراوته وأحقية الموقف السياسي، وثانياً لأن الرواية تخضع لمقتضيات تجنيسها والواقع ينتقل حتما إلى سجل آخر بمجرد ما يحلق بأجنحة حكي التخييل (La fiction) ومن ذا الذي يحق له محاكمة كاتب بتهمة التطاول على ما يجعله حكرا له ؛ إنها لمفارقة مقيتة. هذا الوضع كله بصوابه وتُرهه يبدو أن بن جلون أراد أن يتخطاه بالإمعان فيه، أي بطريقة «داوني بالتي كانت هي الداء» ليجادل بالمنطق والقلم الروائي، فهموم المغرب نُدب في وجوه كل المغاربة وغصّة في نفوسهم حلوا أم ارتحلوا، لذا يشهر صاحب «صلاة الغائب» سيف التحدي في وجه خصومه وغرمائه مصدرا روايته «رحيل» لسان حاله يقول: «هيت لكم!».

وهي رواية يمكن أن تصبح بدورها مصدر جدل من هؤلاء الغرماء بسبب موضوعها المنقول حرفيا من معيش منبتّ الصلة بحياة الكاتب، ولن شاء أن يزعم بأنه تناوله كسقط متاع، لولا أنه متاح في الواقع للجميع، وسبق لآخرين أن عالجوه نصا وسينما ومسرحا، ولا أعرف إن أفلحوا أم غرقوا كأبطاله في اللج العميق. إنها قصة الشباب المغربي، العربي، قل الإفريقي والآسيوي الذي يغامر بحياته دفعة واحدة لينتقل إلى الشمال الأوروبي حيث حلم الكرامة والعيش الرغد والغد المشرق، تاركا وراءه بؤس الجنوب وفاقته وهوان الإنسان فيه. شباب (الباتيراس) قوارب الموت يركبونها من الساحل المغربي الشمالي باتجاه أمل بلوغ الساحل الإسباني المقابل، لا يبعد إلا 14 كلم عن مدينة طنجة إذا عبرتها تكن قد اجتزت الصراط وأدركت جنة الخلاص، بعد أن أحرقت كل شيء، كل ماضيك التعيس ومعه أوراقك، ومنه بعض معنى «الحريق» و«الحراقة» يطلق على الساعين إلى هذا الطريق والناجين منه والغرقى بصفة خاصة، وهم الأكثرية. هذه تيمة رواية بن جلون الأخيرة التي يدشن بها انتقاله من دار «لوسوي» إلى «غاليمار» ويؤكد عبر سردها انتماءه الصميم، وفق معتقده، إلى وطن الجنوب. وقصة هؤلاء الشباب هي وضعية آلاف المغاربة الذين يقطنون منذ سنوات خيبتهم وقد سدت في وجوههم أبواب الشغل بشهاداتهم الجامعية وغيرها تحولت إلى ما يشبه العار، تتوالى الأعوام وهم في يأسهم يراوحون، أو من عمق إفريقيا إلى ذروة البوغاز يصعدون. نلتقي بهم نحن يوميا، المغاربة منهم والأفارقة أصبحوا شحاذين ومستعدين لكل المهن والمهانات مقابل أي خلاص. والطاهر نفسه الذي أينعت جذوره الفاسية بطنجة يلتقيهم كلما حل بها، طاف بأسواقها الداخلية والبرانية، جلس بمقهى (لو باري) يراهم يجرجرون الخطى بنظرات متحفزة وقانصة للانقضاض على أول فريسة، طريدة، أرملة أمريكية أو هولندية عجفاء، لم لا سائح متردي العمر جاء إلى أرض العرب يبحث عن اللذة يلبيها بواسطة الشاب المغربي الذي لم يعد يملك شيئا سوى (..) شأن أشقائنا الآخرين من عرب (الزيت) الذين جعلوا من لحم بناتنا قبلة لشهواتهم الفائضة عن حلائلهم وما ملكت أيمانهم كأفضل تعبيرعن التلاحم والتضامن العربي، أليس كذلك؟!

إنه ميغل الرسام والتاجرالفني، الستيني الشاذ جنسيا، يعيش في جبل طنجة مستمتعا بالشمس والضوء و«العيال» الطنجاويين، يلتقي صدفة بأزل (AZEL) الشاب الذي، بعد أن تخرج من كلية الحقوق، التحق بجيش العاطلين، يعيش كيفما اتفق، عرضة للصعلكة وباحثا شأن أضرابه عن فرصة حرق المسافة إلى إسبانيا وتوديع بلد البؤس والمهانة في حسابه. هي الفرصة التي سيتيحها له ميغل متدبرا أمر تأشيرته ونقله إلى جانبه في إقامته الرسمية ببرشلونة، هناك حيث سيصبح عشيقه الرسمي الجديد مؤديا بذلك الثمن الأول لمغادرة الوطن.

في هذه الإقامة الجديدة ستصبح لأزل (التركيب المزجي لإسم عز العرب، وهو إسم متداول في المغرب) وضعية مختلفة ماديا وسلوكيا ونفسيا ستقوده في النهاية إلى ما لا يحمد عقباه. تروي «رحيل» قصة بطلها بعرض سيرته عبر نسج سير لشخوص/ شخصيات موازية من ضمن عالم همومه وتطلعاته فتبدو ذرات صغرى للنواة الكبرى للشخص المرصود عليه العمل الروائي، صانعة لأبعاده، موسعة لفضائه، ومخصبة ما أمكن لتيمة الهجرة القسرية والإنتحارية بحثا عن حياة، أي حياة دونها الموت أو الضياع في نهاية المطاف. كنزة، سهام، نورالدين، الحاج، سمية، مليكة، عباس، ناظم، فلوبير الإفريقي، غابرييل، وآخرون. كواكب تطوف حول المجرة الكبرى طرفاها الفنان ميغل ممثلا للشمال بقوته وغناه وجاذبيته وفحشه، أيضا، من جهة، والجنوب، عالم العرب والمسلمين، أزل أوعزّ العرب أيقونة هَوانِ العرب وتردي أحوالهم، متنازلين عن أوطان ولا سلاح لهم إلا ما علُم لـ«استعادة الأندلس». الشخصيات الأخرى، هي كما سماها استدلال وهو يقصد الرواية، المرايا التي تجوب الحياة لتعكس صورتها بكل التفاصيل، وهي قد فعلت حد أن كل واحدة منها يمكن تقديرها كوثيقة سناد في ملف الهجرة الحارقة، القاتلة. إليكم بعض التفاصيل تقودنا إلى مرمى مهم آخر:

ـ كنزة: هي أخت أزل، مثله متعثرة في العمل، تطمح إلى الهجرة للخلاص. تجيد الرقص الشرقي فتمتع الأنظار في الأعراس، وسيتدبر لها أخوها بواسطة ميغل، أي واسطة جسده، أمر رحيلها في صفقة زواج «أبيض» هو الآخر مثال آخر لبيع الجسد والكرامة مقابل الهجرة.

ـ سهام: صديقة أزل، تخيب في منتصف الدراسة، تعمل مؤقتا سكرتيرة، وتحلم بالرحيل الذي يأتي في صورة الوصول إلى مربيا الإسبانية لتخدم حارسة مربية لطفلة معوقة عند أسرة ربها ثري سعودي. وهي تتحمل الأرذل من أجل أن تكون حيث هي، فلقد نجت!

ـ سمية: بنت الحسب والنسب الطنجاوي، بدورها لا تفلت من الحرقة، وبعد أن غرر بها ثري خليجي وجلبها في أمتعته إلى الأندلس لاذ بالفرار فألفت نفسها خادمة وطباخة في مطعم والتقت أزل الذي أعطاها صدرا ومتعة جنسية مفتقدة، فيما منحته هي أفانين من اللذة تعيد له الطمأنينة مخافة فقدان فحولته الرجولية مع المرأة، والتي يهدرها كل ليلة في فراش ميغل.

ـ مليكة: التلميذة الطنجاوية الفقيرة، لا حيلة لها لمواصلة تعليمها فيلحقها أبوها بمعمل تشتغل فيه الفتيات لتقشير القريدس المنقول إلى أوروبا مصبرا، مما يتسبب في اهتراء أصابعهن وتلف جهازهن التنفسي مقابل دراهم معدودة. لا بديل لمليكة غير الحلم، وسطيحة بيت أختها من حيث تشرف على الساحل الآخر المقابل، آه لو نبت لها في الليل جناحان لوصلت إلى خلاصها بدورها، وبدلا من ذلك ستموت ميتة ممضة وهي تحلم أنها هناك.

ـ عباس: الفتوة الذي حرق كل السفن وراءه، مثل طارق بن زياد ولهدف مختلف، يصبح «أزعر» مالقة، هو مهاجر سري كالآلاف، بلا أوراق وبكل التدابير، إذ تجد عنده ما تشاء ولا يعف عن شيء ليبقى هنا ولا يُلقى به من جديد هناك، في جحيم بؤس الجنوب. ملاذ أزل حين تدور عليه الدوائر، ومعا سيذهبان إلى مصيرهما المحتوم، كل على طريقته بقدَرمشترك.

ـ ناظم: التركي الحارق أيضا، مهاجر بلا أوراق، عشيق كنزة لتكون مطية للحصول على الإقامة، المخادع لجهلها أنه متزوج وأب لطفلين. مثال إضافي لتضارب الحقيقة والوهم.

ـ فلوبيرالإفريقي: الإفريقي المهاجر بكرامة، الباحث عن قريب له هاجرإلى أوروبا لكنه ضحّى بشرف القبيلة بسبب ديون معلقة، ولا بد من عودته أو دفعها لغسل العار، وإذ يلتقيه عز العرب لا يفهم منطقه هو من أصبح عار المغرب بمنحه اللذة لمثيله، مقابل وطن محال.

هؤلاء جميعا مرايا متقاربة ـ متباعدة لها سيرها أي حكاياتها الخصوصية تصب في السيرة المركزية للشخصية/ الشخص المختارنموذجا، نمطا لظاهرة تيمة لفهمها موضوعيا وكموضوع رسمَها لكي تتجلى لبوسا روائيا، وهنا مربط خيلنا، خاصة مع الطاهر بن جلون قامة روائية بين أجداد وأنداد.

يشتغل الحرفي بأدواته، والروائي حرفي أو لا يكون أو يبطل عمله. وصاحب «رحيل» سعى لحبك وشبك قصته الموضوعة على مقاس، والمصنوعة على طرز، فوجّه مسيرها ومصيرها في خطوط طول وخطوط عرض، تمشي وحدها وتتقاطع مع غيرها، وفي السير تتكون البؤر وتُسرد الحكاية التي ينبغي أن تشد إليها القارئ ليتابع فصولها بوصفها رواية، خاصة وأنها سليلة واقع يمكن أن يظهر أكثر روائية وجاذبية منها.

من الشخص إلى الشخصية، من الواقع الفج إلى ما هو أكثر فجاجة باحتماليته، وخاصة من الجاهزالمعطى في تكرار حد التخمة والضجر مللا، هذا الذي أصبح عليه موضوع الهجرة القاتلة بقوارب الموتى إلى حد انتشاره ملء السمعي البصري في العالم كله. هنا قد يرد سؤال بسذاجة أو حسن نية، لم لا بمكر، أيضا: ماذا تستطيع الرواية أن تضيف؟ ماذا يستطيع الأدب عموما أن يضيف إزاء القسوة والفظاعة والتيه الإنساني/ اللاإنساني للإقناع وتمثل إشكالية شمال / جنوب، كما تبرزها الظاهرة المطروقة؟ لا يكفي أن نجيب أن الإبداع يقدم شهادته، إذ المطلوب أن تمتلك هذه الشهادة خصوصيتها ضمن رؤية وحِرَفية صاحبها أو تأتي كتابته تحصيل حاصل. لذا أقول إن الرواية لا تعمل بمنطق الإضافة الكمية، وإنما بمنطق فائض قيمة تركيب المعنى واستبطان الإحساس، وهي تصبح بأسلوب عندما يتآخى الحدان في توأم فني. واحسب أن بن جلون المحترف واجه أسئلة من هذاالقبيل ورسم ككل صانع سيناريوهات مختلفة للفكاك من المآزق، في قلبها كيف تنسج سردا اليومي ينافسك كل لحظة في غرابته، غرائبيته المثيرة.

ويبقى المأزق فاتحا فاه بفكين حادين، فـ«رحيل» قرأتها بالطول أو بالعرض، أي متريثا مثلي متربصا للانبثاق والإدهاش، تكاد لا تعطي أكثر من نَفَس المبذول كمعاني الجاحظ في الطريق، تلتصق بالموضوع لا بالرؤية، تجمع ما تفرق، تراكم الأشلاء والأنماط والكليشهات المعهودة حول هذه التيمة، تخلطها بتوابل، تنقعها بأفاويه، فلا تعلو في الأخيرعن مقاربة التوثيق، ومنظورالتحقيق؛ هذان ليسا عيبا في الرواية إن تقصّدهما الكاتب متوسلا للصناعة وصوغ الرؤية المخصوصة لعالم يتُمثل في خصوصية أشد على غرار ما يسعى إليه بدأب ونَصَب صنع الله إبراهيم، أما وهما يظهران منتهى ما تبلغه الأداة الروائية، صنيع الروائي الإسباني خوان غاوتي صولو في رواياته الملتزمة، فهي مسألة أخرى. لكأن الطاهر بن جلون، وقد استكمل جميع أوراق حياة وهلاك شخصياته التي بقيت خارج النص، وأنهى مرافعته عن فضيحة قوارب الموت والهجرة الفانية كخلاص وغيره، أحس بالفكين يضغطان عليه وسيفتكان بوليده الجديد ـ القديم إن لم يسارع إلى إنقاذ كتابته من مأزق التوثيق والتحقيق النافلين، ما دفعه إلى اقتراح نهاية ثانية على النهاية الفاجعة لبطله وظلاله، في شكل صورة حلمية (رؤيا) هي الباخرة الراسية في ميناء طريفة لتتوجه إلى عالم آخر وعلى متنها ميغل وكل الشخصيات يمتطونها بنزوع واستيهامات لا ـ توثيقية، فوق واقعية، لتمخر عباب الخيال في رحيل جديد، ربما ينقذ الطاهر بن جلون في رواية قادمة، ربما!

* كاتب من المغرب

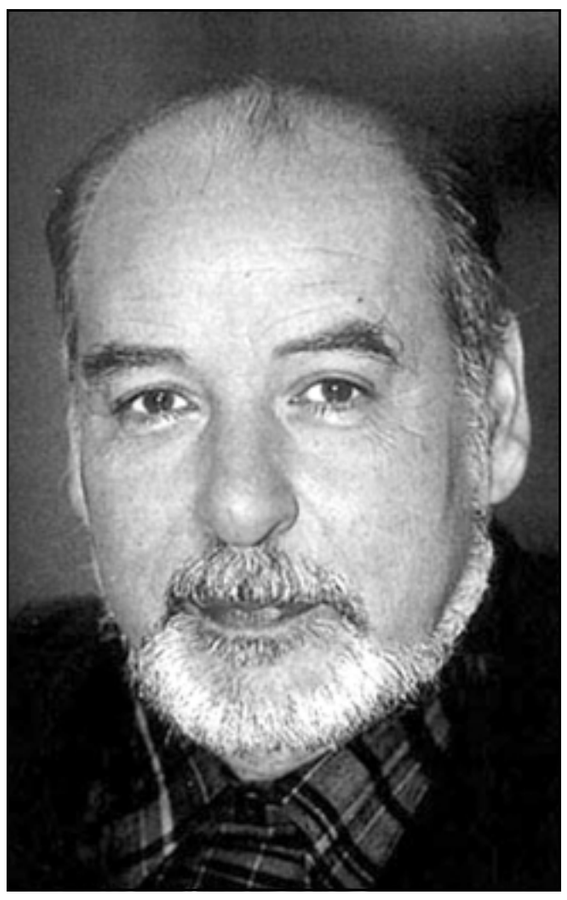

الطاهر بنجلون

شكاوى من قلة التمويل وعدم حصول المترجمين على أجورهم

مؤتمر موسع بالمجلس الأعلى للثقافة لبلوغ مشروعه في الترجمة الرقم 1000

القاهرة ـ «القدس العربي» ـ من محمود قرني:

انتهت فعاليات الملتقى الدولي الثالث للترجمة الذي عقده المجلس الأعلى للثقافة احتفالا ببلوغ المشروع القومي للترجمة الألف كتاب الأولى المترجمة عن اللغات الأصلية.

شارك في المؤتمر ما يتجاوز مئتين وخمسين باحثا ومترجما ومبدعا وعقد ما يربو على الأربع وثلاثين ندوة وأربع موائد مستديرة خلال أربعة أيام تناولت بالنقاش المشروع القومي للترجمة، والترجمة والتنوع الثقافي ومشكلات الترجمة وتقنياتها وترجمة الأدب العربي في اللغات الأجنبية.

كان من أبرز المشاركين الطيب صالح، إنجفار ريدربرج، إنجليكا نويفرت، حسين نصار، سلمى الخضراء الجيوسي، مارجريت أوبانك، صلاح نيازي، المهدي إخريف، سالم يفوت، واسيني الأعرج، منذر عياشي، فريال فيلالي، محمد علي فرحات، أنطون حمصي، بكر الكوسوفي، ثريا إقبال، جمانة حداد، حمادي صمود، دانيال نيومان، حسين ياغي، عبد الملك مرتاض، عيسى مخلوف، عبد الواحد لؤلؤة، بلدار المفتاري، عيسى مميش، كاظم جهاد، إنعام بيوضي، وعدد آخر من الباحثين والمترجمين والمبدعين. وقد جاء الافتتاح رسميا خالصا بعد وضع اسم المؤتمر تحت رعاية السيدة سوزان مبارك التي قادت حفل الافتتاح، وقد قصرت رئاسة الجمهورية الدعوة على صحافيي الرئاسة دون غيرهم من المحررين الثقافيين المعنيين بالأمر برمته.

وقد حضر الافتتاح إلى جانب السيدة الأولى وزير الثقافة فاروق حسني وجابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، وتم تكريم عدد من الأسماء ذات الإنجاز في حقل الترجمة. ويسعى الدكتور جابر عصفور سعيا حثيثا إلى الحصول على موافقة الرئاسة المصرية على إنشاء ما يسمى بالمركز القومي للترجمة ليستقل بمشروعه عن المجلس الأعلى للثقافة الذي ربما يغادره بعد بلوغه السن القانونية بعد التجديد له في آذار (مارس) القادم. وقد أشار الأمين العام في كلمته إلى المشكلات المالية التي يواجهها المشروع وتأخر عدد من الكتب بسبب انعدام التمويل وتأخر نفقات وأجور المترجمين لفترات طويلة، وقد كشفت معروضات المشروع من الكتب عدم وصول المشروع إلى الرقم المستهدف، فرغم وصول المشروع إلى الرقم 1000 إلا أن هناك أرقاما عديدة سقطت في الطريق لأسباب بعضها فني وبعضها مالي وإداري. وسوف نحاول هنا رصد أهم المحاور والندوات التي تناولها المؤتمر الذي امتد لأربعة أيام متصلة.

مأزق الترجمة في الوطن العربي

في أولى ندوات المؤتمر ناقش أربعة من الكتاب والمترجمين الثقافة وغياب الاستراتيجية العربية في مسألة الترجمة وقد أدار الندوة الكاتب والمترجم شوقي جلال.

الورقة الأولى كانت للدكتور عبد الواحد لؤلؤة وكانت تحت عنوان «الترجمة ومشكلات الثقافة» حيث قال إن الترجمة أو النقل كما يريد الجاحظ تتطلب من الناقل أن يتقن اللغتين: المنقول منها والمنقول إليها، إلى جانب معرفة طيبة ببعض اللغات التي تتصل بهاتين اللغتين، إضافة إلى معرفة عميقة بثقافة اللغتين، من تاريخ وتطور ظهرت آثاره في بروز مصطلحات ومفهومات لم تكن معروفة من قبل. وتضيف الورقة أنه يدخل في هذا الباب ثقافة الناقل نفسه، الذي يجب أن يكون على معرفة بالفروق بين لغة أجنبية واحدة مستعملة في أكثر من بلد واحد، مثل الإنكليزية المستعملة خارج بريطانيا، في أمريكا مثلا، أو جنوب أفريقيا أو أستراليا، أو مثل الفرنسية المستعملة خارج فرنسا، في بعض الدول الأفريقية مثلا، أو الإسبانية خارج إسبانيا: في بعض دول أمريكا اللاتينية، ويضيف لؤلؤة إلى ذلك أنه على الناقل أن يكون مطلعا على ظروف الحياة والمجتمع في بلاد ينقل عن لغة أهلها نصوصا يريد لها أن تكون مفهومة مستساغة في اللغة التي ينقل إليها، ويقول إن ضعف الناقل في بعض هذه الأمور أو في أغلبها لا ينتج نقلا مستساغا، إن لم يكن غامضا او حرفيا، يقوم على المقابل المعجمي دون الاهتمام بالسياق. أما الشاعر والمترجم عيسى مخلوف فقدم ورقة بعنوان «الترجمة بوصفها رهانا ثقافيا» قال فيها إن المداخلة تتطرق لبعض الأسئلة في عالمنا العربي الراهن ولا يستقيم الحديث عن الترجمة من دون ربطها باللغة، ليس فقط اللغة التي تترجم من خلالها لغة الأدب، وإنما أيضا اللغة التي تنقل العلوم والفلسفة والفكر، وكذلك الابتكارات العلمية والتقنية الحديثة. وأضاف مخلوف في ورقته قائلا: إن مشكلتنا مع اللغة اليوم هي جزء من مشكلة أعم وأشمل، وكما أن هناك دولا على طريق النمو، هناك أيضا لغات على طريق النمو، مثلما هناك لغات انقرضت أو هي على طريق الانقراض، ويقول عيسى إن السؤال هنا هو في كيفية تطويع اللغة، والإفادة من اشتقاقاتها وإمكاناتها، وجعلها انعكاسا فعليا لوجودنا وثقافتنا وحركة أجسادنا والعمل على رفعها إلى مستوى العصر.

ومن هناك يكتب عيسى في ورقته ثلاث نقاط جوهرية الأولى تتناول الفوارق القائمة بين ترجمة الأدب من جهة، وترجمة العلوم والفكر من جهة ثانية. وأين هي عندنا هذه الفوارق وبأي لغة نبحث عن المعادلات المناسبة والإيقاع الملائم. أما النقطة الثانية فتدور حول المقاييس التي تخضع لها الترجمة، ويقول عيسى هنا: إنني انطلق من تجربتي الذاتية في الترجمة من اللغتين الاسبانية والفرنسية، أدبا وفكرا، وبالأخص من خلال مسرحية «مهاجر بريسبان» لجورج شحادة، أما النقطة الثالثة فتدور حول خلاصات واقع الترجمة في العالم العربي وكيف أن الحديث عن الترجمة هو حديث عن أحد رهانات الثقافة.

أما الدكتور مجاهد عبد المنعم مجاهد فقدم ورقة تحت عنوان «الترجمة والبحث عن المثقفين»، أشار فيها إلى أن المشروع القومي للترجمة الذي يقوم به المجلس الأعلى للثقافة حقق إنجازا كبيرا بإيجاد المثقفين وقد آن أن نطرح رؤية جديدة للثقافة من خلال أرسطو وهيغل بصفة خاصة للإسهام في إيجاد المثقفين ـ بكسر القاف ـ وهم صناع الثقافة.

وأضاف مجاهد أنه سبق لأرسطو أن عرف المثقفين شأنهم حيث يطرحون العلل والأسباب وبالتالي يطرحون القوانين تمهيدا للسيطرة على العالمين الطبيعي والإنساني وبالتالي فإنهم الأحرار الحقيقيون، لأنهم تحرروا من المصادفة والضرورة العمياء، ويضيف مجاهد أن هيغل يرى أن الحرية ليست هي حرية القول والفعل بل حرية السيطرة بالقوانين على عالم المادة وعالم الروح، أي تفهم الضرورة فيزداد الإنسان حرية، ويضيف أنه على هذا سيجدد المثقفون الذين يبرزون في كتاباتهم كيف يتم للإنسان الخروج من الجزئي إلى الكلي ومن الحسي إلى العقلي ومن المباشر إلى اللامباشر ومن المتناهي إلى اللامتناهي ومن هنا يوجد الإنسان الكامل والشامل.

ترجمة الشعر وأفق المعرفة

هذه الندوة التي تحدث فيها أربعة من المبدعين والباحثين وأدارها الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كان الموضوع فيها هو الشعر وترجمته. قدم المترجم والشاعر كاظم جهاد ورقة تحت عنوان «ترجمة الشعر أفقا للمعرفة» قال فيها: إنه يسود في الثقافة العربية تصور للمعرفة يختزلها إلى العلوم الإنسانية والممارسات التحليلية والمباحث الفكرية العامة، وهنا يرى جهاد أن العمل الأدبي والشعري بخاصة يساهم هو الآخر في تجذير المعرفة بالذات، ويقول: أيا كانت علاقة الشاعر بالمعرفة، عرفانية أو برهانية، جدلية أو تخمينية، مادية أو مثالية، انطباعية أو تجريدية، فهو غالبا ما يصدر في عمله الشعري عن معرفة، وغالبا ما يساهم في إنتاج فكر كان في العصور القديمة بين العراف والكاهن والحكيم وقد يجد نفسه نبيا.. ويضيف جهاد أن الشاعر في العصر الحديث هو صنو الفيلسوف، يدفعه إلى الغوص في فلسفته الضمنية، وما شروح هايدغر لعمل هولدرين الشعري إلا مثال دال على ميراث شائع، ويضيف كاظم جهاد أنه لا يصدر للشاعر في عمله عن معرفة حدسية مذوبة في النفع الشعري فحسب، بل يحدث أحيانا أن يردفها داخل القصيدة وخارجها برؤية معرفية لنفسه وللعالم يتصور نقدي للغة والفن الشعري وأحوال العصر، ويضيف أن هوميروس كان مؤرخ اليونان القديم وناقل أساطيرها ومدون معارفها وليس مغنيها الأكبر فحسب، دانتي هو شاعر العشق الذي جعله يقفو آثار بياتريس في العالم الآخر، ولكنه في الأداء ذاته محدد الخطاب الشعري ومجترح اللغة الإيطالية وناقل التاريخ السياسي والاجتماعي لشعبه والمبشر عبر شعره الذي اتسع ليحتضن الفكر الموسوعي الأكثر طموحا وامتدادا. أما بالنسبة للشعراء العرب فيرى جهاد أنهم أيضا أصحاب المعلقات وقد جدلوا الفكر بالشعر دون أن يفقدوا شعرهم رؤاه أو يغربوه عن طبيعته الشعرية، وأضاف أن شعراء النهضة أو رواد الشعر الإحيائي العرب بدأوا هم أيضا بأن عزوا لأنفسهم قدرات العراف والخطيب والقائد السياسي والحكيم.

أما المترجم والكاتب يوسف بكار فقد قدم ورقة تحت عنوان «الترجمة الفارسية لأشعار سعاد الصباح. قراءة نقدية». يتناول بكار ترجمة أربعة من دواوين الشاعرة سعاد الصباح إلى الفارسية وهي الدواوين التي يترجمها حسن فرامرزي وفرهاد فرامرزي. أما المترجمة نجوى عمر كامل فقدمت ورقة بعنوان «الترجمة ومجتمع المعرفة» قالت فيها إن المجتمع العربي في سعيه الحثيث إلى التقدم واللحاق بالركب ومواجهة التحديات المختلفة يجد نفسه أمام مجموعة من القضايا المصيرية التي قد يمتلك مفاتيح لها، أو بعضها ـ على الأقل ـ وفي مقدمة هذه التحديات الوجود الإسرائيلي في المنطقة، وتفعيل هذا الوجود بوصفه مبنيا على أيديولوجية خاصة تسعى لتهميش الوجود العربي أو القضاء عليه تماما لو سنحت الفرصة، لذلك لم تعد المواجهة مع إسرائيل عسكرية فقط، ولا حتى سياسية واقتصادية وإنما أصبحت مواجهة فكرية. لذلك أصبح لازما على المجتمع العربي أن يحاول تأصيل معرفته بالآخر وهو حقيقة تقوم أولا على الاعتراف، ثم على الاقتراب الفكري الذي يتيح أكبر قدر من المعرفة. وتقول نجوى إنها لذلك اختارت أن تناقش حركة الترجمة من اللغة العبرية إلى اللغة العربية في مجال الأدب ومعرفة ما إذا كانت هذه الحركة على نفس مستوى الترجمات من اللغات الأجنبية من حيث الكم والكيف.

وتقول نجوى إن مصر هي الشريحة الممثلة للأقطار العربية في هذه الورقة، فلم تتعرض لحركة الترجمة من العبرية التي قام بها عرب آخرون من بلاد عربية أخرى وتقول المترجمة إنها اختارت مصر لسهولة الوصول إلى الترجمات المطلوبة وللتقارب بينها وبين الكيان الإسرائيلي، وحتمية العلاقات بينهما وكذلك لوجود أقسام لتدريس اللغة العبرية في الجامعات المصرية.

وتدرس الورقة أيضا نماذج من الترجمات الأدبية في مجالي الشعر والنثر. كان هذا المحور يتناول تحليلا مضمونيا للمشروع القومي للترجمة وكانت الورقة الأولى فيه للدكتور حسن حنفي الذي أشار إلى أن الترجمة لفظ جديد معرب عن اللاتينية في حين أن اللفظ القديم هو النقل، أما الترجمة عند القدماء فتعني السيرة الذاتية ومنها كتب التراجم، ويضيف أن الترجمة عنصر واحد من عناصر النهضة الحضارية من مركب ثلاثي يضم الترجمة والنثر والتأليف، الترجمة للوافد والنثر للموروث، والتأليف وهو تفاعل الوافد والموروث من اجل إبداع نص جديد، ويضيف حنفي أن الترجمة ليست مجرد نقل معلومات من لغة إلى أخرى أو من ثقافة إلى أخرى بل هي اختيار إرادي مقصود للتعرف على ثقافة الآخر بناء على احتياجات الذات، فقد تمت الترجمة القديمة لأرسطو لتدعيم العقلانية الناشئة، كما تمت الترجمة الحديثة لفلاسفة التنوير لتدعيم النهضة العربية الإسلامية الجديدة.

أما الدكتور ماهر شفيق فريد فقدم ورقة حول مناقب المشروع القومي للترجمة وقدم الناقد فتحي العشري ورقة حول الموضوع ذاته. وتبقى في النهاية إشادة واجبة بالمشروع في مجمله، على ما قدمه من مراجع مهمة وحديثة في مختلف المعارف ومن العديد من اللغات لا سيما ما كان مهملا منها، خاصة وأن المجلس الأعلى للثقافة لا ينشر الترجمات إلا من لغاتها الأصلية، وهو تقليد يجب أن تتبعه دور النشر العربية كلها.

إلا أن الأمر في النهاية سيظل محاولة قاصرة لم تبلغ مداها لأسباب مختلفة اولها أنها لم تنجح في تقريب الفجوة بين ما ترجمه مصر وما تترجمه نظيراتها ويظل المترجم في إسرائيل سنويا يتجاوز ما يترجمه العالم العربي مجتمعا، وثانيها ان التعامل مع موضوع الترجمة باعتباره تزيدا أو ترفا يمكن الاستغناء عنه يعني ان المخصصات التي تنفقها الدولة في هذا الاتجاه مقصورة على فئات الإنفاق الحكومي غير المتناهي.

وثالثها أنه من العبث ومن السخرية والبلاهة أن نتحدث عن شيء اسمه المشروع القومي للترجمة وهو لا يملك منفذا واحدا للتوزيع إلا منفذ الجهة التي تصدره على طول الجمهورية وعرضها ولا يطبع من كتبه أكثر من ألف نسخة. أظن أن المشروع القومي في تعريفه العام يحتاج إلى دعم أكبر من الدولة، ليتجاوز كونه مشروعا دعائيا إلى كونه مشروعا يهدف إلى تغيير المجتمع.

في القفر والجمع

زليخا أبو ريشة*

فروق

فروق طفيفةٌ
تلك التي بين يديك وقلبي
فروق لا تكاد ترى

فمادة يديك
التي من رغوة الرغبة
تشبه هواء قلبي المبتهج
بالحرية
قلبٌ ملقى في
لجّة
وما يزال سعيدا
بافتراضاته
أما اليدان المراوغتان كبندول
الباحثتان في الأسرار
القابضتان على مثل صوت هاربٍ
فإنهما تلكما اللتان ستدفعان بي نحو
هاويتي
هاويتي التي ليست بعيدة عن
معناك.....

السويداء 2006/2/9

ما للنوّى

ما للنوّى سلّط سيفه على
المرايا
فغارت الكؤوس ؟
صاح بالطحالب، فتكاثرت في
طريق الأحباب
وولى كمهزوم حيناً
ثم حضر كمرابٍ يحصي نقده...

ما للنوّى.....ولنا
.....
.....

سعادة

ضاعت بوصلتي
من تدلني على اتجاه
الريح؟
ضاعت ساعتي
من تدلني على اتجاه
البرق؟

ضاع مرفأي
من تدل سفني على اتجاه
السعادة ؟
السعادة التي قلّما عرفت إلا ملمسها
الخشن
.....
.....

جبين عشاّقي

في القفر عرفت
التعدد
في الجمع عثرت على
الفرد
في النسرين جالدت
الفلّ
وكنت دوما طوع الياسمين
الذي أعبده في جبين عشاقي
.....
.....

حبيبي

تركت غرف الوقت
خاوية كقلب
واتجهت نحو مكان حبيبي
نحو تعرّشه
وكتابه
نحو خلاصاته في الزجاجات
وحالاته
نحو امتلائه المحض
وطلّسماته
حبيبي الذي مكانه بين الحجاب الحاجز
والفيروز
.....
.....

السويداء 2006/2/12

أيّها المعنى

لعلي لم أطق عنك صبرا أيها
المعنى لعلي ما فرحت إلا
كربيعك
وما خاطرت بما يكفي
لأسردك
ولعلي لم أخطّ إلا كي
أفقدك

آه أيها المعنى ..!!

أيّتها المعابر

أيّتها المعابر في
الرمال
أيّتها المرايا في
الممرات
أيّتها الفضة في
الكؤوس
أيّتها الغانيات في
الأفئدة
أيّتها المساءات في
الأشجار
أيّتها القمصان على
الخطايا
أيتها المليحات المتيّمات

خذنني إلى بستانه أقطف
السهاد
خذنني إلى ناموسه
أعدل مزاج الوقت
خذنني إلى صلاته
ألقّط
الماس
خذنني إلى بياضه
فهو ملاذي الأخير
.....

* شاعرة من الأردن